

ملف العدد

فاعلية الوعي في فكر نيتشه وهيجل

تحطيم سلطة الوعي وتحرير القوى الفاعلة
(قراءة في فكر نيتشه الفلسفي)
م.م. هجران عبد الإله احمد أالصاحي
جامعة الموصل

تطور الوعي الديني في فلسفة هيجل
الباحثة
غيداء محمد حسن عبد الرزاق
بإشراف
أ.حسون السراي

المقدمة

الإطار النظري لتلك التطورات العلمية التي نشهدها اليوم.

ومن هذه المحاولات التي أثرت بشكل كبير على تطور الفكر البشري ومسار البحث الفلسفي محاولة الفيلسوف الألماني نيتشه (١٨٤٤م-١٩٠٠م)، ناقد الحداثة وفيلسوف العلمانية الأكبر، إذ شن نيتشه هجوماً عنيفاً على الفلسفة العقلية وعلى رواد هذه الفلسفة وعلى رأسهم سقراط وافلاطون وديكارت، وعدهم نماذج للإنسان النظري المتطرف وسعى من خلال هذا النقد ان يوجه اهتمام الباحثين والمتخصصين في شتى المجالات الى موضوعات تعنى بالجسد وتدعو الى اكتشاف طاقاته وتحرر قواه الفاعلة من أية سلطة خارجية، فالهدف المرجو من هذا النقد هو اعادة هيبية الجسد المسلوبة بسبب سطة العقل التي حاولت ان تهمش الجسد وتعطل قواه تحت مسميات كثيرة، وطرح الجسد كأداة للمعرفة ، وكيوننة (بديلة للعقل) لا تفهم الظاهرة الإنسانية ولا تفسر إلا به وإلا من خلاله، بوصفه مكن القوى الفاعلة.

ساهمت التطورات المعاصرة المتسارعة في الأبحاث العلمية والطبية في خلق ثورة بيولوجية جديدة، كما أسهمت في تحديد مفهوم الجسد بشكل الذي يتناسب مع تلك التطورات. وقد سبقت تلك التطورات العلمية بعض الطروحات الفلسفية المهمة التي مهدت الطريق لمثل تلك الفتوحات العلمية. لأنها اعاداة طرح مفهوم الجسد طرحاً مغايراً عما كان سائداً. إذ يرى المنتبع لتاريخ الفكر البشري عموماً والفكر الفلسفي خصوصاً ان الفلاسفة غالباً ما حبذوا البحث في موضوعات التي تخص قوى الإدراك البشري، والوعي ، ونقد العقل، والبحث في تأملات النفس وانفعالاتها ، أكثر مما حبذوا البحث في موضوعات تخص الجسد؛ ولهذا وقع الجسد ضمن تراتبية صارمة أفضت في اغلب اشكالها ليس في صالحه، فوقفت تلك التراتبية تارة الى جانب العقل وتارة الى جانب النفس او الروح . لكن وجدت عدد من المحاولات الجادة لقلب تلك التراتبية. والتي أسست

تحطيم سلطة الوعي وتحرير القوى الفاعلة (قراءة في فكر نيتشه)

الجسد ونقض وتحطيم يوتوبيا العقل التي تبنتها الفلسفات العقلية منذ سقراط مروراً بأفلاطون ووصولاً إلى ديكارتر، والتي أعلنت الحرب على الغرائز وتامرت على الحياة. واختلقت أسطورة التراتب، وأقحمت الفكر بثنائيات متناقضة، مثل ثنائية العقل والجسد أو الروح والجسد أو المعرفة والحياة أو الفكر والغريزة وغيرها. والتي أفضت في كل إشكالها وفقاً للتصور النيتشوي إلى كبت الجسد واحتقاره وعطلت قواه وصادرت الحياة بتسميات جوفاء.

ويرى نيتشه في محاولات الفلسفات العقلية للتصدي للانحلال الذي وجدوا انه قد استشرى في الحضارة الإغريقية (حسب اعتقادهم)، هي في حقيقتها نوع آخر من أنواع الانحلال. لان العقلانية تعني من وجهة نظر نيتشه أن نستبدل مريضاً يكبت غرائزه الجسدية بواسطة قواه العقلية الطاغية. وان أي محاولة للخروج من وضع الانحلال تقوم على إعلان الحرب على الغرائز كوسيلة للإنقاذ، هي ليست سوى نوع

ان المتتبع لتاريخية الجسد سيلاحظ إن الجسد وقع ضمن تراتبية أفضت في كل أشكالها ليس في صالحه فوقت تارة إلى جانب العقل وتارة أخرى إلى جانب النفس أو الروح. ويمكن عدّ أول محاوله لإعادة الاعتبار للجسد كانت على يد إسبينوزا الذي فتح من خلال دراسته لموضوع الجسد طريقاً جديداً للعلوم والفلسفة على حد قول جيل دولوز⁽¹⁾، فاسبينوزا دفع نحو ضرورة البحث في موضع الجسد، وعدم اقتصار البحث حول موضوعات الوعي والروح. فنحن نجهل ماهية هذا الجسد، وماهية القوى التي فيه. فهو يرى "نحن لا نعرف حتى ما يستطيعه جسم، إننا نتحدث عن الوعي وعن الروح ونثرثر حول كل هذا، لكننا لا نعرف ما الذي يقدر عليه جسم، وما هي قواه أو ما تحضره"⁽²⁾. كما أن اسبينوزا يعتقد أن الجسد يستطيع بقوانين طبيعته الخاصة أن يقوم بأفعال يندesh لها العقل⁽³⁾.

هذه الأفكار وغيرها هي التي دفعت نيتشه نحو شن حملة فكرية نقدية للدفاع عن

آخر من الانحلال. فالإيمان بالعقل بأي ثمن ومحاربة الغرائز هي حالة مرضية^(٤).

لقد شن نيتشه هجوماً عنيفاً على العقل، كما استخدمه الفلاسفة التقليديون وعلى رأسهم سقراط وأفلاطون، ويلوح أول ملامح هذا الهجوم في كتابه (الفلسفة في عصرها المأساوي الإغريقي)، وهو هجوم غير مباشر على العقل لأن نيتشه هاجم رواد الفكر العقلاني، حيث هاجم سقراط وأفلاطون وعدمهم نماذج متطرفة للإنسان النظري، وعد فلسفة سقراط بداية مرحلة جديدة من مراحل الفكر اليوناني، ونهاية لمجموعة من الفلاسفة السابقين الذين يسميهم (جمهورية العباقرة) " لأعجب أن أتناول الفلاسفة السابقين لأفلاطون، وكأنهم مجتمع منسجم، وإن أكرس لهم هذا الكتاب. إن أفلاطون يمثل بداية جديدة كلياً،.... إن شيئاً جوهرياً ينقص لدى الفلاسفة منذ أفلاطون حين نقابلهم بجمهورية العباقرة تلك التي تمتد من طاليس إلى سقراط ... سنكون أكثر عدلاً وموضوعية لو اعتبرنا هؤلاء الأخيرين فلاسفة هجاء والأول نماذج صافية"^(٥).

ولهذا يسعى نيتشه من خلال مشروعه النقدي القائم على تحطيم العقل، إلى إعادة الاعتبار للجسد لا على مستوى التوصيف فقط، بل على مستوى التوظيف أيضاً. وذلك من خلال الدعوة لتحرير قواه الفاعلة، وتفعيل طاقاته العضوية، والتركيز على الجوانب اللاشعورية واللاواعية في الجسد الإنساني. وهذا ما سيجاول هذا البحث أن يبينه من خلال بيان علاقة فكرة "concept" الجسد بالوعي وماهية الجسد وفقاً للتصور النيتشوي.

وجد نيتشه من خلال دراسته للفلسفات السابقة له أنها قائمة على عبادة أصنام وأول هذه الأصنام وأكبرها هو العقل الذي أمن به الناس والفلاسفة، وبقدرته على اكتشاف الحقيقة والوجود، ونصبوه حاكماً مطلقاً قوانينه من قوانين الوجود، وفصلوه عن الحياة، ووضعوه فوق الوجود وليس جزءاً منه يعبر عن جانب من جوانبه المتعددة^(٦).

ورأى نيتشه أن انحطاط الفلسفة يرجع في النهاية إلى تصور الفلاسفة للعقل ولقدراته. فأنكر كل أفعال الفلسفة المستندة إلى العقل. وبالاعتماد على منهجه

الجيولوجي وجد ان هناك سببين وراء اعتقاد الفلاسفة بالعقل:

(السبب الأول) يعود إلى الإيمان بـ "إننا نملك منزلة إلهية ذلك إننا نملك عقلاً"^(٧). فوفقاً لتصور نيتشه "كان الإنسان في ما مضى يرى في وعيه وفي عقله دليلاً على أصله السامي وعلى إلهيته، ولكي يرتقي لمستوى الكمال، كان ينصح بأن يعمل على مستوى السلحفاة سحب حواسه إلى الداخل. وان يقطع كل علاقته مع الأشياء الأرضية، بل ينسلخ عن القشرة الفانية وهكذا لا يتبقى غير العنصر الجوهرى (الروح الخالصة) . لقد غدا الوعي المكتسب والروح يمثلان بالنسبة لنا عرضَ نقص نسبي يشوب العالم العضوي"^(٨).

و(السبب الثاني) وراء اعتقاد الفلاسفة بالعقل هو كرههم لفكرة الصيرورة. فيقول "تسألوني عن كل مظاهر الحساسية المفرطة لدى الفلاسفة؟ ... نقص الحس التاريخي لديهم، الكره الذي يكونه لفكرة الصيرورة، ومنحاهم المصري. يعتقد الفلاسفة انهم يضيفون قيمة شرف على الأشياء عندما يجردونها من طابعها التاريخي، عندما يحولونها إلى مومياة. كل ما ظل الفلاسفة

يعالجونه منذ آلاف السنين لم يكن سوى مومياة أفكار وليس هناك من شيء حقيقي حي يخرج من أيديهم"^(٩). ويقول أيضاً "البعض يعشقون مومياة والبعض الآخر أطيفاء، والنوعان معا عدوان لكل ما هو لحم ودم"^(١٠). في إشارة إلى الفلاسفة ورجال الدين. فنيته يرى أن العقل الإنساني لا يستطيع أن يدرك الصيرورة لان تفكيره ينحصر في تعريف كل وجود بوصفه وجوداً ساكناً ثابتاً، فعقولنا غير مهياة لفكرة الصيرورة. إنها تناضل لكي تثبت أن كل الأشياء ثابتة لا تتغير. فالتفكير يجد ان خصائص الصيرورة لا يمكن صياغتها وأنها زائفة ومتناقضة تناقضا ذاتياً^(١١).

أما نيته فقد أنكر الوجود الساكن والتفكير في الوجود بوصفه وجوداً ساكناً يعد وهماً، يوهم بوجود شيء ثابت. ولا يوجد شيء أسمى من الصيرورة الدائمة التي تشكل وحدها الوجود الحقيقي. والصيرورة ليس لها هدف تنتهي عنده، إنها ليست مجرد مظهر، وهي تعلق على كل تقييم عندما تؤخذ في كليتها^(١٢).

لم يكتف نيته ببيان الأسباب التي تقف وراء الإيمان بالعقل وتفنيدها. بل فند

قدرات العقل أيضاً، أي أنكر الإيمان بقدرة العقل على التوصل إلى معرفة يقينية أو حقيقية لا بل انه رأى إن العقل أشد أعداء الحقيقة، واليقين أخطر من الكذب في عداوته للحقيقة^(١٣). فالعقل حسب اعتقاده "لم يولد خلال مدد زمنية هائلة سوى أخطاء: قد بددت في بعضها مفيدة، وصالحة لحفظ النوع مثل هاتِهِ الأخطاء التي لم تقتأ تنتقل وراثياً ككثير من أقسام العقيدة الدينية إلى إن تصير الغاية المشتركة للجنس البشري، وهي مثلاً ما يلي: هناك أشياء دائمة أشياء بذاتها، توجد فعلاً أشياء، مواد، أجسام، الشيء هو ما يبدو انه هو، ارادتنا الحرة، ما هو صالح بالنسبة إلي فهو ذو صلاح أصلي كذلك. ولم يظهر الذين كذبوا مثل هاتِهِ الآراء وشككوا فيها إلا متأخرين جداً، ولم تظهر الحقيقة كشكل المعرفة الأقل إلزاماً الا متأخرة جداً" ^(١٤).

فالعقل دليل على ضعف الإنسان، فأحكامه التي تفسر شهادة الحواس، على أنها علامة على وجود شيء يقودنا إلى الخطأ، هي أحكام خاطئة لم يتم تنفيذها إلا مؤخراً، "في ما مضى كان ينظر إلى مسائل التبدل والتحول والسيرورة عامة على أنها دليل على ظاهرة الوجود، وعلامة على انه لا بد

أن هناك شيئاً يقودنا إلى الخطأ. واليوم فإننا، على العكس من ذلك، نستطيع أن نرى ابعده ما يمكن، إلى الحد الذي تجربنا فيه المسابقات العقلية على إقرار مسائل الوحدة والهوية والديمومة والجوهر والعلّة والشيء بذاته، والكائن، وتورطنا بشكل ما في الخطأ، وتضطرنا إلى الخطأ"^(١٥).

فنيته يدافع عن الحواس وبعدها لا تخطئ أبداً وان أحكام العقل هي أحكام خاطئة ولا يمكن الوثوق بها، وعلى الرغم من إقرار نيته بهذا الا انه يقر أيضاً إن الإنسان لا يستطيع أن يهرب من العقل لأنه لا يستطيع الهروب من اللغة^(١٦) ، فاللغة تنتمي من حيث منشؤها إلى العقل "العقل داخل اللغة: أي عجوز مخادعة، وإنني لأخشى إننا لن نتخلص من الرب، لأننا مازلنا نؤمن بالنعو"^(١٧).

وبعد أن بين نيته الأسباب التي تقف وراء الإيمان بالعقل. وبين معارضته للعقل وأحكامه وأعطى إيمانه للحواس. انتقل إلى التشكيك بقدرة العقل على تزويدنا بمعارف يقينية أو قواعد أخلاقية عامة، وان كل مبادئ الفكر وقوانينه هي أيضاً ليست سوى أخطاء. وإن اعتقد البعض أنها مفيدة لحفظ النوع، فهو اعتقاد خاطئ أيضاً وباطل،

ويسخر نيتشه من هذا الاعتقاد بالقول " إن أخطاء حكم ما لا يشكل عندنا مأخذ على الحكم. ولعل هذا من الأمور الأغرب وقعاً على السمع في لغتنا الجديدة. فالمسألة هي بالأحرى : إلى إي مدى يكون "الحكم" منيماً للحياة، محافظاً على الحياة، محافظاً على النوع، بل ربما مُحسناً للنوع"^(١٨). ويضرب نيتشه مثال على بعض هذه الأخطاء التي اعتقادها البعض أنها مفيدة لحفظ النوع. الإحكام التأليفية القبلية. حيث يجد في هذه الإحكام أنها الأكثر خطأ والأكثر لزوماً وهي من أوهام المنطق. التي تجعل من الاستغناء عنها بمثابة الاستغناء عن الحياة ونفياً لها^(١٩).

فما نلاحظه هنا أن محاولة نيتشه تحطيم صنم الفلسفة الأكبر المتمثل بالعقل الذي عدّه من أشد أعداء الحقيقة، وحكم عليه بأن إحكامه، ومبادئه، وقوانينه، هي أوهام منطقية^(٢٠)، هي محاولة لتحطيم أهم الأسس التي قامت عليها الفلسفة وأحد أقدام أدوات التفلسف، التي طالما وثق الإنسان بها واعتمدت عليها بشكل مطلق كأداة للحقيقة. فنفقده للعقل جعله من أشد أعداء الفلسفة العقلية ليس فقط لأنه شكك بثقة العقل المطلقة بذاته، بل لأنه نظر للعقل

على انه حركة معادية للحياة ولغرائزها. و"إن الحياة الواضحة وضوح النهار، الباردة، الواعية، دون غرائز وفي تعارض مع الغرائز، لم تكن في حد ذاتها سوى حالة مرضية"^(٢١). فنيتشه يحكم على العقل من منظور بايولوجي بحت. فالعقل يمثل كل هو مناقض للحياة وكل ما هو إرتكاسي فيها.

لكن على الرغم من إنكار نيتشه للعقل ومهاجمته لمبادئه وقوانينه إلا انه لم ينكر العقل إنكاراً مطلقاً إلى حد التجاهل الكامل والمطلق، فهو لم ينكر التمييز بين العقل ومضمون العقل (مادته)، ولم ينكر إننا ملزمون ومجبرون على استخدام العقل لأنه أصبح متضمناً في لغتنا لكنه أنكر إمكانية الوصول به إلى إدراك الوجود الحقيقي^(٢٢).

فنيتشه لا يرفض العقل بطريقة فجأة، ولكنه يرفض الدور الذي يلعبه العقل في الفلسفة التقليدية، أي يرفض طغيان العقل أو المبالغة في تقديره على حساب الجسد وغرائزه. فالإنسان يجب أن يستخدم العقل ولكن ليس من أجل أن يشن حرباً ضد الغرائز، ففي الإنسان السوي ينسجم العقل مع الغرائز ويؤديان دورهما في تناغم. أو

بتعبير نيتشوي ينسجم العنصر الأبولوجي مع العنصر الديونيسي^(٢٣). ويمكن أن نلخص موقفه الراض للعقل بنقطتين:

الأولى : عدم الثقة المطلقة بالعقل، أو بيقينية العقل المطلقة بذاته، فالعقل مصدر للأوهام والأكاذيب، وما يقدمه العقل من مبادئ، ومسائل فكرية هي مجرد أوهام من اختلاقه يسقطها على العالم من أجل فهمه وتفسيره^(٢٤).

أما الثانية : فتعود إلى نظرة نيتشه للعقل، حيث رأى فيه حركة معادية للحياة ولغرائزها مما جعله يتمسك باللاعقلانية، ومدافعاً عن الإنسان وعن غرائزه ويمكن ان نختم هذا الموقف بعبارة نيتشه عن العقل " ان ندرك حدود العقل، ذلك وحده ما يعد فلسفة حقاً"^(٢٥).

ومن هنا نستطيع أن نطرح تساؤل إذا لم يحظى العقل بثقة نيتشه في اكتساب المعرفة وانه مجردة حركة معادية للحياة. بماذا نستطيع أن نصل إلى إدراك الوجود؟ وما هي أدواتنا؟ إذا لم يكن العقل هو الجهاز المصمم للمعرفة^(٢٦)؟.

يجيب نيتشه عن هذا السؤال بالقول انه (الجسد العضوي) في بعده اللاوعي

اللاشعوري. فنيتشه يضع الجسد بمرتبة اللاشعور او اللاوعي، بينما يحتل الفكر أو الروح مرتبة الشعور أو الوعي كدرجة دنيا مقارنةً بسابقها. وهذا الاعتقاد جاء على غرار ما اعتقد فرويد في أن الوعي هو منطقة الأنا التي يؤثر فيها العالم الخارجي... لا يظهر الوعي عادة الا حين يريد كل ان يتبع بعض ، هذه هي عبودية الوعي : إنه يشهد على تكون جسم اعلى. انه ال(هو) السيد الذي يختار الوعي ليصير عبداً وتابعاً له مختوماً في شرنقة أفكار وتصورات وأيضاً طابوهات، هي في الأصل فكر واعٍ ، بينما الجسد بكونه لا واعياً، هو منفلت ومتحرر وغير محدود^(٢٧).

فالوعي لدى نيتشه أدنى من اللاوعي أو اللاشعور ، وهو دائماً وعي أدنى بالنسبة إلى الأعلى الذي يخضع له أو يلتحق به ، ليس وعياً للسيد ؛ بل هو وعي للعبد بالنسبة للسيد^(٢٨). فالعقل تابع للجسد وليس قائماً بذاته ، لكنه خيط من الحوادث التي لا تكون شيئاً لان كل حادثة من الحوادث تنتج عن حادثة جسدية ، وتفسر تفسيراً كاملاً بواسطته، حتى يمكن القول بان الحوادث العقلية تشبه الظلال التي تظهر

لجسم ما، أو الروائح التي ينتجها مصنع ما^(٢٩).

فالوعي لا يظهر حسب وجهة نظر نيئشه إلا حين يريد أن يتبع كل أعلى منه ، وهذا الكل سواء كان الهو أو اللبيدو، فهو يعني الجسد، ولذلك يغدو الجسد أكثر إدهاشاً من الوعي عند نيئشه ، ويسميه العقل العظيم "الجسد عقل عظيم، تعدد ومعنى موحد، حرب وسلام ، راع وقطيع"^(٣٠). وهذا العقل العظيم يستخدم الوعي كوسيلة للوصول لغايته ورغباته، أي ان الوعي مجرد أداة بيد الجسد "أداة لجسدك هو عقلك الصغير يا أخي هذا الذي تسميه روحاً أداة صغيرة ولعبة لعقلك الكبير"^(٣١). أما الانا التي طالما مجدها الفلسفة فيقول عنها "تقول أنا وتشعر بالفخر لهذه الكلمة، لكن ما هو أعظم هو ذلك الذي لا تريد أن تؤمن به، جسدك وعقله الكبير: ذلك العقل لا يقول أنا بل يفعل أنا"^(٣٢). بمعنى أن الأنا ليست هي القوى الفاعلة وليست هي القوى المحركة بل الجسد الذي يمثل مكن القوى الفاعلة. وأصل أفعالنا وتصرفاتنا. أما العقل أو الوعي أو الأنا فهي ليست سوى لعبة بيد الجسد. والجسد هو ماهية الإنسان الفاعلة، وهو الأداة الحقيقية للمعرفة. فالأنا التي مجدها

ديكارت واعتبرها ماهية الإنسان الحقيقية، تصبح وفقاً لهذا الطرح مجرد وهم منطقي وليست " يقيناً مباشراً " ، وتصبح وفقاً لنيئشه ليس شيئاً آخر غير الجسد الذي يمثل " عقلاً عظيماً " ، وهو أكثر حكمة من العقل بل هو العقل الحقيقي الذي يستخدم العقل والأنا كأدوات بيده.

لم يقف نيئشه عند تجريد الوعي من سلطته فقط، وتفنيد الإيمان المطلق بقدراته بل حاول أن يصادر أدوات الوعي المتمثلة بالحس والعقل لصالح الجسد أيضاً. وعدها مجرد لُعب بيد الذات، فالذات تبحث بعيني الحواس، تصغي بأذان العقل وتبحث وتقران وتخضع، وتستولي، وتدمر، وتسود وهي صاحبة السيادة، وهي أشبه بسلطان ذو نفوذ وحكيم غير معروف اسمه الذات، مأواه الجسد وهو الجسد^(٣٣). فنحن لسنا بحاجة إلى العقل أو الذكاء، إذ أمكننا العيش من دونه. لكن لا يمكن العيش بدون الجسد، وما قيمة الحواس والأعصاب والدماغ إذ أصبح من العسير الحصول على التغذية^(٣٤). فنينشه يعطي للبعد الحيوي والعضوي للإنسان الأهمية الأكبر.

ويقف هذا وراء موقف نيتشه المعادي للعقل ومن سعيه الدؤوب وراء تحطيم سلطة الوعي وتصريحه بأن "العقل هو جهاز غير مصمم من أجل المعرفة" و"أننا لسنا بحاجة إلى الذكاء"^(٣٥). وأن العقل لا يشكل إلا جزءاً ضئيلاً من معرفتنا وأن الوعي ما هو إلا بمثابة اللغة الرمزية للجسد أو هو النظام الساسي للجسد^(٣٦). هدف واحد هو طرح (الجسد) كأداة بديلة عن العقل في كسب المعرفة واكتشافها. وتمجيد هذه الأداة لأنها أكثر صلة بالحياة وبالتالي أكثر قدرة على الإبداع والخلق. وأن السبب وراء احتقار الجسد من قبل البعض هو عجزهم عن الخلق والإبداع من يحتقر الجسد "أيها المستهينون بالجسد. أقول لكم: إن ذاتكم ذاتها تريد أن تموت وتدبر الحياة. لم يعد باستطاعتها أن تبلغ ذلك الذي تريده أكثر من أي شيء؛ أن تبدع ما يفوق منزلتها"^(٣٧).

لكن إذا كان الجسد هو أداة المعرفة التي تسخر ما دونها من أدوات العقل والوعي من أجل اكتساب المعرفة واكتشافها وهو المبدع "الجسد المبدع هو الذي ابتدع لنفسه العقل يدا لإرادته"^(٣٨).

نسأل بماذا يستطيع الجسد اكتشاف نفسه كونه ذات عارفة؟ طالما كانت هذه الذات "على الدوام تصغي وتبحث: تقارن، تخضع، تستولي، تدمر، تسود، وهي صاحبة ألاتنا أيضاً"^(٣٩).

يجيب نيتشه عن هذا التساؤل بالقول أننا نستطيع معرفة الجسد بالجسد عينه وبما يمتلك من قوى فاعلة تكمن في بعده اللاواعي فيقول "وراء أفكارك ومشاعرك يا أخي، يقف سيد ذو سطوة وسلطان وحكيم غير معروف اسمه الذات جسديك مأواه، وجسدك هو"^(٤٠). ويقول أيضاً "ثمة أكبر حكمة في جسديك مما أفضل والديك من حكمة"^(٤١) في إشارة للغرائز. فهو يقصد إن الغرائز الكامنة في الجسد فيها من الحكمة ما يفوق العقل بكثير وهي تتضمن حكمة الجسد، وهي الماهية الحقيقية للإنسان؛ لا بل إن كل ما لدينا من أفكار هي في حقيقتيها ظلال للمشاعر فكل حدث عقلي ليس إلا انفعالاً ونتاجاً لما يحدث للغرائز "الأفكار ظلال أحاسيسنا- فهي دائماً مظلمة وأكثر فراغاً وبساطة من هاتيه الأحاسيس"^(٤٢).

وبذلك أصبح مصدر الفكرة هو اللاوعي أو الغرائز اللاشعورية وليس الوعي

أو العقل. وهذا ما أكده أيضاً في كتابه هذا تكلم زرادشت حين يقول "ما لفكرة إلا شهوه كغيرها من الشهوات" (٤٣).

إذن فالجسد وفقاً للتصور النيتشوي هو ليس أداة للمعرفة فقط وإنما هو الكينونة التي لا تفهم الظاهرة الإنسانية ولا تفسر الا به و الا من خلاله فهو مكنم للقوى الفاعلة.

وان الإنسانية وتقدمها لا تعتمد على العقل ولا تسير وفقاً لتصوراته. بل "ان ما حققته الإنسانية يعود بالفضل إلى اعضاء السفلى" (٤٤). ولو كانت الإنسانية تتصرف حسب ما يميله العقل، إي حسب ما تفكر به وما نعتمده، فان مصيرها سيكون إلى الزوال منذ زمن بعيد.... فالعقل هو عضو تابع يتطور ببطء، ولحسن الحظ لم تكن له قوة كافية لتحرير الإنسان. فهو يخدم الغرائز العضوية ويتحرر ببطء، منها إلى حد ان يصل إلى مرتبة التساوي في الحقوق مع تلك الغرائز تماماً كما لو كان غريزة جديدة تضاف إلى غرائزه" (٤٥).

وبذلك اعطى نيتشه اهمية كبيرة للغرائز في تحديد المعرفة والأفكار. وتغدو المعرفة وفقاً لتصوراته معرفة فردية وفي

حالة صيرورة مستمرة وفي كفاح مستمر يمتزج فيه الحس والعاطفة. وتعتمد فيه فيما الأساس على الغرائز والنزوع البيولوجي الخام. وهي لم تعد عاجزة كما كان يصور لها قديماً " بانها عاجزة عن اداء ابسط الوظائف. في هذا العالم الجديد المجهول لم تعد تمتلك وسائل إرشادها السابقة تلك الغرائز المنظمة المعصومة بلا وعيها عن الخطأ. لقد أصبحت مقتصرة على التفكير، وعلى الاستنتاج، وعلى القيام بحسابات، وعلى ربط الأسباب بالنتائج. يا لتعاستها! اعتقد انه لم يوجد على الأرض فيما مضى مثل هذه الشعور بالضيق ولا مثل وطأة هذا القلق!" (٤٦)؛ بل تصبح مع نيتشه معصومة عن الخطأ. أي أن نيتشه يقلب كل التصورات القديمة عن الغرائز. ويغدو البناء التحتي للإنسان هو العقل المباشر وهو الحقيقة الموضوعية ومن ثم يأتي البناء الفوقي الذي لا يشاكل الواقع وإنما يشكل مسوغاً وتبريراً لسلوك صاحب الفكر ولأفعاله المادية والغريزية المباشرة التابع من حيويته وكيانه البيولوجي (٤٧).

بالإضافة لذلك لن تكون الغرائز أساسا للمعرفة فقط بل هي مقياس لقيمة الفرد وتميزه عن غيره من الناس وتبعاً لقيمة الغرائز التي يمتلكها الفرد والتي تميزه عن غيره تكون واجباته وحقوقه غير متساوية مع الآخرين^(٤٨).

ومن خلال كل ما ذكر يتضح موقف نيتشه من العقل والجسد، وتصوره لطبيعة العلاقة القائمة بينهما فهو يحاول أن يؤسس لنمط جديد من العلاقة ليست قائمة على تضاد وتعارض كما كان يصور لها سابقاً^(٤٩). بل هي علاقة كامنة في تدفقات قوى الجسد. فالعقل الذي قدسه الفكر طويلاً هو ليس إلا واحد من مكونات الذات البشرية وهو ليس وراء الجسد، انه يسكنه والجسد يعبر عنه، يدخله في العالم، يجعله يتواصل مع العالم^(٥٠). وان الجسد هو الذي يستخدم العقل كوسيلة للوصول لغايته ورغباته وهو مجرد أداة بيد الجسد^(٥١).

وهكذا تجاوز نيتشه العقل وضمه في معنى الجسد، كما تجاوز كثير من التصورات الفلسفية مثل فكرة الثنائية التي حكمت الفكر البشري طويلاً. كما ساهم في وضع أسس جديدة لفهم طبيعية البشر، وكيفية استجاباتهم

للمؤثرات وأنماط سلوكهم بشكل عام^(٥٢). وفتح مرحلة جديدة للجسد حيث تنكشف قواه الإبداعية ويتخلص من كل التشويشات التي مورست عليه خلال التاريخ. وأصبح كل ما هو إبداعي وجمالي منبعه الجسد، فعبر انفعالات الجسد تتجلى معاني الحياة وتدفق الأحاسيس التي تكشف عن الصيرورة^(٥٣).

كما إن لهذا الفتح اثر كبير على كثير من المرجعيات الثقافية لبعض دعاة ما بعد الحداثة حيث يرى البعض ان كل من نيتشه، وبارت^(٥٤)، جاك دريدا^(٥٥) حطموا المقولات العقلية بعملية ذات طابع جنسي^(٥٦).

ونستطيع أن نختم القول بأن فلسفة نيتشه حول الجسد تقابل ما ذهبت إليه طروحات الثقافة الإغريقية، ووقفت بالضد من كل الفلسفات التي أمنت بالعقل إيماناً مطلقاً أو بالغت فيه وأعلت من شأنه واستخفت بالجسد وحفرته أو أهملت قواه الفاعلة. ويمكن تصوير موقفه من الجسد بأنه موقف يجانب الحضارة الإغريقية القديمة ويعارض سقراط، أو لنقل إلى جانب (ديونيسيوس وبالضد من سقراط) وإلى جانب الأسلوب الاستعاري الذي ميز

الحضارة ما قبل سقراط، وبالضد من الأسلوب البرهاني الذي أضعف الفعالية الفلسفية^(٥٧).

وهذا ما يبرر عدائية نيتشه لشخصيته وفكر سقراط فيقول "السقراطية تعني الاحتفاء والإعلاء الجدلي للرجل النظري. ألا يمكن أن تكون هذه السقراطية نفسها علامة الانهيار والتعب والمرض والغرائز المنحلة الفوضوية؟"^(٥٨). كما انه لم يكتفي بنقد الفكر السقراطي بل انه يتهم سقراط بأنه ساهم في أفول الحضارة الإغريقية فيقول "لدى الإغريق يكون التقدم بسرعة، ولكن الأفول تم كذلك بسرعة. إن حركة الإلهة كلها مسرعة إلى درجة تكفي معها حصاه واحدة ترمى في دولبيها كي تتفجر الإلهة. وقد كان سقراط واحد من هذه الحصاة، ففي ليلة واحدة تم تدمير تطور علوم الفلسفة المنتظم بشكل رائع حتى ذلك الوقت"^(٥٩). لهذا فهو يحكم على كل تاريخ الفلسفة بعد انهيار الحضارة الإغريقية بالانحطاط ويفند كل الادعاءات التي تنظر للحضارة على أنها في تطور مستمر نحو الأفضل كما يعتقد الإنسان الحديث وبن الحداثة مرادفة للتقدم أو انها قوة دافعة للتطور، فالحداثة حسب وجهة نظر نيتشه

لن تأتي في المستقبل بل أن الحداثة ليست حديثة وإنما قديمة جداً ولم تعرفها سوى حضارة النبلاء الرومان، "كان الرومانيون هم الأقوياء النبلاء الذين بلغوا سن القوة مبلغاً لم يصل إليه احد على وجه الأرض، الذين كانوا ادني كتابة من كتاباتهم مدعاة للنشوة والافتتان"^(٦٠)، وكانت الغرائز هي وسائل إرشاد الإنسان في تلك العصور السابقة، تلك الغرائز المنظمة المعصومة بلا وعيها، عن الخطاء اما الان فقد اصبحت مقتصرة على التفكير، وعلى الاستنتاج، وعلى القيام بحسابات، وعلى ربط الاسباب بالنتائج. اي أصبحت مقتصرة على الوعي، على اضعف واخرق عضو من اعضائها على حد تعبير نيتشه^(٦١). ولذلك لم يعرف البشر في العصور الأولى، معنى الخطاء، والضمير، والشعور بالذنب. وكانت غرائزهم بمثابة قوة ايجابية تجلت في البنية الجسدية القوية، والصحة والجمال. فكانت طلاقة مرحلة تجعل الأفعال تصدر عنها بعفوية، وبجرئة هوجاء. بحيث تجعل الإنسان منعتقاً من كل قيد. وبالإجمال كانت غرائز الإنسان القديمة تجعله قوياً وفرحاً ومرهوب الجانب^(٦٢).

أما الإنسان مع سقراط ومع من بعده لا يمثل إلا دليلاً على الضعف والمهانة، إي

انه مخباء يختفي خلفه الضعفاء غير
القادرين على المواجهة انفعالات أجسادهم،
وتعبير عن فقر الحياة وضعف في إرادة
القوة^(٦٣).

